

ظاهرة العشق عند مولانا جلال الدين

بهبروز حسن نژاد*

الملخص

لاريب أن مولانا جلال الدين مفكر عظيم، وعارف كبير، وشاعر شهير في العالم عامة، والحضارة الإسلامية خاصة. والتحدث عن أفكاره، والكتابة عن وجهات نظره حول الخالق، والإنسان، والمفاهيم البشرية، والعرفانية، ليسا بهذه البساطة. والتوجهات البشرية، والإقبالات العامة لاتجاهاته الفكرية، والمعنوية في أنحاء العالم، تثبت لنا هذا الموضوع. والخطأ كل الخطأ أن ننظر إلى الإنسان نظرا إلى الشيء المستقل عما قبله، وعما بعده. ذلك الذي لا يتصل بشيء، مما حوله، لا يتأثر مما سبقه، أو أحاط به، ذلك خطأ لأن الكائن المستقل هذا المستقل، لاعهد له في العالم. لذلك مولانا كان متأثرا من عهده، وموثرًا فيما بعده. وهذا التأثر، وذلك التأثير بشكل عظيم، يعتبران إحدى العلامات، لكبار الرجال الفكريين. ولن ننسى بأنه عاشق، أو محب، فيصور الله، عز وجل، كمعشوق. وهو يعتقد بأن الإنسان، يقدر أن يتمسك بالله، ويصل إليه، بذريعة الحب دائما. والحب هو أتمن المفاهيم، وأسمن المضامين، وأغناها، وأكبرها عند عارفنا الكبير، وهذا المقال يتحدث عنه.

الكلمات الدلالية: الحب، الله، الحبيب، العارف.

*. عضو هيئة التدريس بجامعة آزاد الإسلامية في جيرفت.

تاريخ القبول: ١٣٨٨/١١/٢٠ هـ. ش

تاريخ الوصول: ١٣٨٨/٨/١١ هـ. ش

المقدمة

هذا العشق الذي فهمه الصوفية من التعبير القرآني: ﴿يحبّهم ويحبّونه﴾ (المائدة: ٥٤) تجلّى منذ اللحظة الأولى للخلق. فرعه في الأزل، وأصله في الأبد. كما يقول مولانا في ضرب من المفارقة. (د/٣٩٥/٤١٨٣) بدأ هذا العشق بالخطاب الإلهي: ﴿ألست برّبكم قالوا بلى﴾ (الأعراف: ١٧٢) في مهرجان الميثاق الأزلي. تلك الجرعة الأولى من الكأس الأبدية للسعادة، والبلاء، والاشتياق. لأنهم بإجابتهم (بلى) قبلوا كلّ شيء. في كلمات الأنبياء، وفي ذكر الدراويش، وألحان السماع، هذا الخطاب الإلهي الأزلي الذي موضوعه العشق، جرى به إلى عامّة الناس، لعلهم يتذكرون العهد السابق، ويوجّهون إلى حبيبهم. ومولانا لا يخلو من هذه القاعدة. يرّد مولانا عندما سئل أحد أصدقائه عن صفة العشق، سأل سائل: ما صفة العشق؟ قلت: لاتسأل عن هذه المعاني، عندما تصير مثلي ستراه، عندما يدعوك استدعوه. (د ٢٧٣٣/٢٩٠٥٠)

فتجربة مولانا في العشق، والهجر، والوصال الروحي، والمعنوى كانت وثابة بديعة رائعة مليئة بالحرارة، والحلاوة، والنشاط. وهذه التجربة قهرته، وأحرقته، وجعلته ملعبة أطفال الحي. (د/١٩٨) ^(١) فلذلك كلماته حول العشق، تشكّل موجا مفعما بالنار التي كلّ من أصابها يحترق ويندلع. (م/٩/١) ^(٢) هذا العشق، هو الأسطرلاب الحقيقي (م/١١٠/١) ^(٣) لأسرار الحق؛ أشعله، وأضرمه لقاءه بشمس الدين التبريزي، لكنه يختلف عن تجارب أولئك الصوفية، والعرفاء الذين رأوا الجمال الإلهي منعكسا في الشبان الجميلين. هو يعرف، ويعترف بأنّ العشق الأرضي، كمرقاة، وقنطرة للعشق السماوي، وليس سواه. (م/١٠/١) ^(٤) يعطي الناس بناتهم الصغيرات، دمي ليعلموهنّ، واجباتهنّ؛ بوصفهنّ أمّهات المستقبل، ويعطون أولادهم، سيوفا خشبية، ليعودوهم على القتال، والحروب، والفروسية، فبالأسلوب نفسها يتربّى قلب الإنسان، أو السالك بالعشق البشري، ويستعدّ للاستسلام بمراد الحبيب أو الله. (م/٥/٣٥٩٧)؛ (د/٢٧٥/٣٣٧) ^(٥) فإنّ العشق، للأجساد، والأموات، لا يدوم. (م/٢١٧/١) ^(٦) والعشق الحقيقي ينبغي أن يوجّه إلى الله الذي لا يموت. (م/٢١٩/١) ^(٧) وعندما تقع صنارة العشق في حلق الإنسان، يجذبه الحق تعالى تدريجيا؛ وهكذا تخرج منه تلك الصفات السيئة، والدماء الفاسدة



التي تكوّنت فيه شيئاً فشيئاً. (مولانا، ١٣٤٨ش: ١٢٧) والعشق خليقة فطرية، وسجية ذاتية في كلّ مخلوق: الذئب، والدبّ، والأسد يعرف العشق، وأخسّ من الكلب، من هو أعمى عن العشق. (م/٥/٢٠٠٧)^(٨)

والعشق يكسّر استقرائية الملوك ويحطّمها؛ واستنادا على هذا يصبح الملك عاشقا لتلك الأمة. (م/١/٣٦، ٣٧، ٣٨)^(٩) فاعلم أنّ دوران الأفلاك من موج العشق، ولولا العشق ليجمد العالم. (د/٢٦٨٤ / د ٢٨٣٦٥)^(١٠) يرى مولانا جلال الدين قوة العشق وسطوته وحدّته في كلّ العالم: العشق بحرٌ والسما فوّه زبّد، مثل زليخا في هوى يوسف. (م/٥/٣٨٥٣ ومابعده)^(١١) والعشق دواء يطّهر كلّ شخص يتحلّى به. (م/١/٢٢)^(١٢) هو الطبيب لكلّ الأمراض، وهو يمثل لنا أفلاطون وجالينوس في شخص واحد. (م/١/٢٣، ٢٤)^(١٣) مثلما تحول الشمسُ الظلالَ المظلمةَ الكثيية، والظلام البائس، واليائس إلى جمال ملون، ومرّوع، ويكون العشق كيمياء عظيمة، وكريمة، تحول الحياة البشرية؛ والشاعر يعتقد أنّ بالمحبّة تصير الأشياء المرّة حلوة، كما تصير الأشياء النحاسية ذهبية الصفات، وبالمحبّة تصير الأشياء العكرة صافية، وبالمحبّة تصير الآلام شفاءً، وبالمحبّة يحيا الميت، وبالمحبّة يصير الملك عبدا. (م/٢/١٥٢٩ ومابعده)^(١٤)

قد نظم مولانا في أواخر حياته أنّ الشيطان لو صار عاشقا، لاختطف كرة السّبب، ولصار مثل جبرئيل، وماتت فيه تلك الصفات الشيطانية. (م/٦/٣٦٤٨)^(١٥)

ذلك يعني أنّ الصفات السيئة، والرذيلة في الإنسان، المتمثلة في النّفس، يمكن تربيتها بالعشق وحده، وكلّما كان الشيطان قويا في السابق حالما يكون قد أسلم نفسه لسلطان العشق. والشمس مظهر شمس الدين التبريزي، وشمس الدين مظهر العشق لمولانا. ومذهب العشق يختلف عن الأديان جميعا. (م/٢/١٧٧٠)^(١٦)

العشق لا يشرح، وعدمُ شرحه يخجل الإنسان، والعقل لا يستطيع أن يشرحه. (م/١/١١٣، ١١٥)^(١٧) تقابل العشق، والعقل المنطقي كان دائما موضوعا محببا لدى الصوفية. يدخل الشاعر مناقشة رائعة بين العشق، والعقل المنطقي في أشعاره الغنائية؛ إذ يقول العقل: الجهات الستّ هي الحدّ، وليس ثمة طريق إلى الخارج، ويقول العشق إن هناك

طريقا وقد مشيته مرّات، رأى العقل سوقا وبدأ بالتجارة، رأى العشق أسواقا أخرى وراء هذه السوق. (د/ ١٣٢/١٥٢٢-١٥٢٤) (١٨)

وينبغي للعقل أن يصبح نحيلا، عندما يكون العشق سميئا. (د/ ٢١٩٠/٢٣٢٤٦) (١٩)
ولا يعرف الفقهاء شيئا من العشق، حتّى أبوحنيفة والشافعي، لم يعرفا ظاهرة العشق
مصرّحا في قصة (وكيل صدر جهان) في المثنوى. (د/ ٣/ ٣٨٣١-٣٨٣٢) (٢٠)

يعجز العاقلون عن فهم العشق كما يعجز الطفل عن فهم أحوال العقل.
(م/ ٣٩٣٢/٥) (٢١) العشق غيور إنّه شعلة تحرق الصورة الظاهرية، بل كلّ شيء ما
عدا المعشوق. (م/ ٥٨٨/٥؛ ١١٣٦/٣) (٢٢) العشق هو الشحنة التي يضع مرجلا مملوءا
بنار الهجر على صدر الروح حتّى يعذّبه عندما ينسى للحظة، واجبه في تقديم الشكر
للمعشوق. (م/ ١٩٩٤/٦) (٢٣) العشق أسدٌ أسود أو تمساح، أو تين، آكل للإنسان.
(م/ ٢٧٢٦/٥) (٢٤) لذلك صنيع الأبطال، كجمل سمين يدخل بيت دجاجة ويقوض
دعائم البيت. (م/ ٤٦٤٨/٣) (٢٥) يدرى بالضبط في العشق توقّف القواعد العادية،
والقوانين المرسومة لذا أدب العشق ترك الأدب تماما. وليس للعاشق أدب متعارف.
(م/ ٣٦٧٨/٣) (٢٦) والنسبة المثالية بين العاشق، والمعشوق من أجمل الموضوعات
وأبسطها في فكرة مولانا؛ عندما يأتي المعشوق يمحو العاشق ولا بدّ للعاشق أن يفتش
عنه، ويلهث له مثل الظلال التي تعشق النور وحينما يظهر النور تضمحلّ الظلال. (م/
٣/ ٤٦٤٠) (٢٧) ففي قصة سليمان، والبعوضة، نرى بأنّها تشكو من الرّيح، وأذيتها لديه،
وسليمان بوصفه الحكم والعالم بلسان الطيور والحيوانات، يحكم بأنّ الرّيح يجب عليها
أن تحضر في المحكمة لأجل تعذيب البعوضة، وحينما تحضر الرّيح أمام سليمان تمحو
البعوضة، والرّيح مظهر المعشوق والبعوضة مظهر العاشق. (م/ ٣/ ٤٦٥٧، ٤٦٥٨) (٢٨)
ويأتى الشاعر بتمثيل آخر في النسبة بين العاشق والمعشوق؛ وهو تمثيل الأسد بمنزلة
المعشوق والطّيب بمنزلة العاشق؛ عندما ينظر الأسد إلى الطّيب يختطفه وبيتلعه. (م/ ٣/
٣٦٧٦؛ م/ ٥٧٦/٦) (٢٩) لا حيلة للعاشق سوى الاستسلام أمام هذا الأسد الذي يمثّل
المعشوق. (م/ ٥٧٧/٦) (٣٠) قد اخترع مولانا صورا لا حصر لها في وصف العاشق، ويتابع



مولانا أمثلة النورى وصوفية بغداد الأوائل الآخرين ويشبهه العاشق بالسحابة، عندما يبكى وبالجيل عند التحمل، ساجدا كالماء، متواضعا كتراب الطريق، وهكذا فإن روضة الورد التي يجدها هي المعشوق.

والعاشق جليّ في كلّ مكان، شبيهه بالجمل الذي اعتقد أنّه غير مرئي فوق المئذنة، سلوكه يذيع سرّه وحركته تفسى مخفياته، وكلّ ما يقوله يحمل شذا العشق عندما يلفظ كلمة (الفقه)، تتحول إلى (الفقر)، الفقر الرّوحي وعندما يقول (كفر) تحمل الكلمة رائحة الدّين. (م/١/٢٨٨٠)^(٣١) العشق له رائحة المسك، وهذه الرائحة تفسى العاشق. (د/٣٠٤١/٣٢٣٣٥)^(٣٢) ومثلما لا يتحدث العاشق إلا بالعشق، وفي العشق، يتوق إلى أن يسمع اسم المعشوق في كلّ مكان، يتطلّع إلى الأطلال، آثار المنازل السابقة للمعشوق، ليتحدّث إليها حول الذكريات السعيدة، بالطريقة نفسها والتي يخاطب فيها شعراء العرب القدامى ديار الحبيبة التي غادرتها في مطالع قصائدهم. (م/٣/١٣٤٥)^(٣٣) أو يتمنى أن يكون جبلا ليستمتع باسم المعشوق الذي يرّجعه الصدى مرّات عديدة. (م/٣/١٣٤٩ وما بعد)^(٣٤) ونستنبط من تجربته أنّ العاشق والمعشوق لا يمكن إلا أن يكون بينهما اتحاد بعبارة أدقّ، العشق يطلب فردا واحدا وأدبا خاصا. (م/١/٣٠٥٦ وما بعد)^(٣٥) ورغم أنّ هذا الشوق يجعل العاشقين ناحلين، وشاحبي الوجوه كأوراق الخريف يظهر العشق نفسه في المعشوق في شعاع متألق كالربيع. (م/٣/٤٤٤٥ وما بعد)^(٣٦) والعاشق كالخريف، والمعشوق كالربيع. العاشق يعميه العشق الذي هو نور. والناس أمامه مثل الظلال. (م/٦/٩٨٣)^(٣٧) أضاع العاشق نفسه في المعشوق فحرب خيمته في العدم. (م/٣/٣٠٢٣)^(٣٨) ولا سلطان لملك الموت عليه. لم يبق منه إلا اسمه، وكلّ شئ آخر يملأ بالمعشوق، ذات صباح قال معشوق لعاشق على سبيل الامتحان: يا فلان بن فلان! أتحنّني أكثر أم نفسه، قل الحقّ يا ذا الكرب؟ إذ ذاك سلّم المعشوق بأن اسمه فقط هو الذي أبقى له، فكيف يمكن أن يميز في العشق. (م/٥/٢٠٢٠ وما بعد)^(٣٩) وفي نهاية الكلام بغضّ النظر أنّ الكلام عن العشق لا ينفد، نختم كلامنا بيت من ديوان الشمس، إذ يقول: كنت ميتا صرت حيا، كنت باكيا صرت ضاحكا، جاءت سعادة العشق وصرت سعادة راسخة.

النتيجة

هذا المقال تحدّث عن مولانا وعشقه، كما عالج بعض أفكاره حول الحبّ وتأثيره في نفس العاشق. أخذ المقال ماء الفكرة، بالجرّة من محيط أعماق العشق، وإذا لم نكن نقدر أن نذيق ماء البحر تماما، بالاستطاعة أن نذيق على قدر إزاحة عطشنا. رأينا بأنّ العشق هو أئمن المفاهيم وأسمن المضامين وأغناها وأكبرها عند مولانا جلال الدين، لا يمكن شرحه وعدم شرحه يخجل الإنسان، والعقل لا يستطيع أن يشرحه. هذا العشق الذي فهمه الصوفية من التعابير القرآنية (يحبّهم ويحبّونه) ومأخوذ منها. وفي رأيه كلّ أجزاء العالم عاشقة، وكلّ جزء من العالم مملّ باللّقاء. يرى مولانا جلال الدين، قوة العشق وسطوته وحدّته في كلّ العالم. والعشق هو أهمّ الدواء الذي وصفه للبشرية.



الهوامش

١. سجاده نشين با وقارى بودم
٢. آتش عشق است كاندر ني فتاد
٣. علت عاشق ز علت ها جداست
٤. عاشقى گرزين سروگريزان سراسر است
٥. چون ندارد از فتوت زور ودست
٦. زان كه عشق مردگان پاينده نيست
٧. عشق آن زنده گرين كو باقى است
٨. گريگ وشير وخرس داند عشق چيست
٩. بود شاهى در زمانى پيش از اين
١٠. اتفاقا شاه روزى شد روزى سوار
١١. يك كنيزك ديد شه بر شاهراه
١٢. دور گردون ها ز موج عشق دان
١٣. عشق بحرى وآسمان بر وي كفى
١٤. بازيچه ي كودكان كويم كردى
١٥. جوشش عشق است كاندرمى فتاد
١٦. عشق اسطرلاب اسرار خداست
١٧. عاقبت ما را بدان شه رهبر است
١٨. كودكان را تيغ چوبين بهتر است
١٩. زان كه مرده سوى ما آينده نيست
٢٠. كز شراب جان فزايت ساقى است
٢١. كم ز سگ باشد كه از عشق او عمى است
٢٢. ملك دنيا بودش وهم ملك دين
٢٣. با خواصّ خويش از بهر شكار
٢٤. شد غلام آن كنيزك جان شاه
٢٥. گر نبودى عشق بفسردى جهان
٢٦. چون زليخا در هواى يوسفى

۱۲. هر که را جامه ز عشقی چاک شد
اوز حرص و عیب کَلّی پاک شد
۱۳. شاد باش ای عشق خوش سودای ما
ای طیب جمله علت های ما
۱۴. ای دوی نخوت و ناموس ما
از محبت تلخ ها شیرین شود
- از محبت دردها صافی شود
از محبت دردها شافی شود
- از محبت مرده زنده می کنند
دیو اگر عاشق شود گوی برد
۱۵. دیو اگر عاشق شود گوی برد
ملّت عشق از همه دین ها جداست
۱۶. ملّت عشق از همه دین ها جداست
هر چه گویم عشق را شرح و بیان
۱۷. شرح عشق و عاشقی هم عشق گفت
عقل بازاری بدید و تاجری آغار کرد
۱۸. عقل بازاری بدید و تاجری آغار کرد
بند من افزوده گشت از پند تو
۱۹. بند من افزوده گشت از پند تو
آن طرف که عشق می افزود درد
۲۰. آن طرف که عشق می افزود درد
گر نبیند کودکی احوال عقل
۲۱. گر نبیند کودکی احوال عقل
عشق آن شعله است کوچون بر فروخت
۲۲. عشق آن شعله است کوچون بر فروخت
هست عشقش آتشی اشکال سوز
۲۳. هست عشقش آتشی اشکال سوز
شحنه ی عشق مکرّر کینه اش
۲۴. شحنه ی عشق مکرّر کینه اش
هر چه جز عشق است شد ماکول عشق
۲۵. هر چه جز عشق است شد ماکول عشق
چون به خانه مرغ اشتر پا نهاد
۲۶. چون به خانه مرغ اشتر پا نهاد
نبض عاشق بی ادب بر می جهد
۲۷. نبض عاشق بی ادب بر می جهد
سابه هایی که بود جویای نور
۲۸. سابه هایی که بود جویای نور
اوچو آمد من کجا یابم قرار
- هم چنان جویای درگاه خدا
پیش شیری آهوی مدهوش شد
۲۹. پیش شیری آهوی مدهوش شد
ای رفیقان راه ها را بست یار
۳۰. ای رفیقان راه ها را بست یار
غیر تسلیم و رضا کوچاره ای
۳۱. مولانا، ۱۷۳۱ش: ۹۱.
۳۲. عشق بوی مشک دارد زان سبب رسوا شود
چاره نبود عشق را از خود چنین رسوا شدن
۳۳. نی که عاشق گوید روز و شب
گاه با اطلال و گاهی با دمن

۳۴. من چنان اطلال خواهم در خطاب
 ۳۵. آن یکی آمد در یاری بزد
 گفتش من گفتش بروهنگام نیست
 خام را جز آتش وهجروفراق
 رفت آن مسکین وسالی در سفر
 چون بیخت آن سفر کرده پس بازگشت
 حلقه بر در زد به صد ترس وادب
 بانگ زد یارش که بر در کیست هان
 گفت اکنون چون منی ای من درآ
 ۳۶. لیک میل عاشقان لاغر کند
 ۳۷. عشق ربّانی است خورشید کمال
 ۳۸. عاشقان اندر عدم خیمه زدند
 ۳۹. گفت من در توچنان فانی شدم
 ۴۰. گریه بدم خنده شدم مرده بدم زنده شدم
- کز سدا چون کوه وا گوید جواب...
 گفت یارش کیستی ای معتمد
 بر چنین جانب مقام خام نیست
 که یزد که وارهاند از نفاق
 در فراق یار سویرید از شرر
 باز گرد خانه ی انباز گشت
 تا بنجهد بی ادب حرفی ز لب
 گفت بر در هم تویی ای دلستان
 نیست گنجایی دومن در یک سرا
 میل معشوقان خوش و خوش فر کند
 امر نور اوست خلقان چون ظلال
 چون عدم یک رنگ و نفس واحدند
 که برم من از تو از سر تا قدم
 دولت عشق آمد و من دولت پاینده شدم

المصادر والمراجع

القرآن الکریم.

- مولانا، جلال الدین محمد بلخی رومی. ۱۳۷۴ش. دیوان جامع شمس تبریزی. طهران: نشر فردوس مجید.
- مولانا، جلال الدین محمد بلخی رومی. ۱۳۳۶ش. مثنوی معنوی. تصحیح رینولد نیکلسون. طهران: نشر امیر کبیر.
- مولانا، جلال الدین محمد بلخی رومی. ۱۳۴۸ش. فیه ما فیه. تصحیح وحواشی بدیع الزمان فروزانفر. طهران: نشر امیر کبیر.
- مولانا، جلال الدین محمد بلخی رومی. ۱۳۷۱ش. مکتوبات. تصحیح توفیق سبحانی. طهران: مرکز نشر دانشگاهی.

